حياة الفنان الراحل برهان كركوتلي

في آخر لقاء جمعنا، أنا والكركوتلي، في (هامبورج) قبل أكثر من سنة، قال لي هازئا وهو يمسك كعادته كأسا من الجعة، "في آخر عدد من ديرشبيغل (Der Spiegel) كتبوا مقالا عن حفلاتي كحكواتي، هذه أول مرة تكتب ديرشبيغل عني ولكن هل تعرف ماذا كتبوا؟! قالوا: حكواتي آت من بلاد أسامة بن لادن!" ابتسمت حينها ساخرا وقلت في سري "لا كرامة لنبي في وطنه... ولا في المهجر".

كان للصدفة أولا ثم لموضوع دراستي ثانيا الدور الكبير في التعرف على برهان كركوتلي عن قرب؛ ففي شتاء 1998، رتب لي أحد الأقارب في (بون) موعدا معه. والتقينا حينها في محطة القطار حيث كان ينتظرني برفقة إحدى صديقاته. اقتربت من طاولته محييا وعرفته عن نفسي فوقف وشد على يدي بحرارة وقبلني مرحبا كأنه يعرفني منذ زمن بعيد.

أخبرته حينها عن موضوع دراستي وأنني بحاجة إلى بعض المعلومات، بل الكثير منها عن حياته وعن مسيرته الفنية. فوعدني بذلك ثم قدم لي في آخر اللقاء ثلاث لوحات مما

كان يطبعه بالأوفست ممهورة بتوقيعه. وكانت هذه الهدية "دفعة أولى" من الحكايا التي أرسلها إلي كركوتلي، الرسام والحكواتي وهذه أهم حكاياته.

كان جده عبد الوهاب، قد هرب من كركوك أثناء المجاعة التي ألمت بالمدينة عام 1880، ليستقر في دمشق ويتزوج إحدى فتياتها. دعي جده أولا بالكركوكلي نسبة إلى المدينة التي أتى منها، ثم تحولت في العامية الشامية إلى كركوتلي فكركتلي.

رأى برهان الدين بن محمد نديم كركوتلي النور في دمشق في 15 آيار- مايو 1932 من أم تركية الأصل وكان ترتيبه الخامس بين ستة أولاد.

عاش كركوتلي سنواته الأولى في بيت دمشقي تقليدي في حي "القميرية" على مقربة من الجامع الأموي والأسواق الشعبية المعروفة ثم انتقل إلى بيت في حي "البحصة الجوانية"، أحد الأحياء الشامية التي شكلت ذاكرته.

كان الصغير محاطا بأشخاص موهوبين في الرسم، فأخوه عبد الوهاب كان مغرما بتكبير الصور الفوتوغرافية على طريقة المربعات. أما أخوه مراد وأبوه فكانا يمضيان أوقات فراغهما في الرسم. وكان لبرهان عم يرسم أيضا وله لوحة لم ينسها فناننا أبدا تصور البطل الشعبي "أبو زيد الهلالي".

أما موهبته هو فقد ظهرت في مدرسته الابتدائية (معهد اللاييك) على أيدي إحدى المدرسات الفرنسيات، وصار بتشجيع منها يقوم بتصوير ما يقع تحت يديه من رسومات في الكتب المدرسية مستحقا الثناء.

بعد طلاق والديه، آثر الأب أن يخرج ولديه عبد المجيد وبرهان الدين من المعهد الفرنسي ليدخلهما في مدرسة دينية ملحقة بجامع "تنكز" المجاور للمنزل. لم يجد الصغير الخجول، وكان له من العمر 8 سنوات، أي مجال لممارسة هوايته في هذه المدرسة بل على العكس، كان الرسم محرما فيها. كان للنظام الصارم في تلك المدرسة الدور الكبير في طلبه من أبيه أن يخرجه منها على الرغم من تفوقه آنذاك في دروسه، ليدخل المدرسة العامة. استعاد برهان في هذه المدرسة قليلا من الحرية التي افتقدها في المدرسة

الدينية، كما استعاد حصص الرسم الأسبوعية. كان الفنان (ميشيل كرشه)* مدرس الرسم فيها، لكن برهان لم يتأقلم مع شخصيته الفظة بل وجد في مدرس الرياضة ويدعى "خالد المورة لي" خير موجه فني له. في تلك الفترة بدأ برهان بالخروج من عزلته وخجله المعهود فيشارك أترابه باللعب في باحة المدرسة وربما في التظاهر ضد الفرنسيين مع الطلاب الأكبر سنا. أما على صعيد هوايته، فقد كان يكبِّر صورا فوتوغرافية مقابل مبلغ من المال يجمعه ليذهب به إلى السينما!

نال برهان شهادته الإعدادية ثم تابع دراسته الثانوية في "التجهيز الأولى" حيث لفت نظر أستاذه الفنان (صلاح الناشف) برسومه الكاريكاتورية التي تصور أساتذته في الثانوية.

يتعرف برهان في هذه المرحلة على الفنانين "نصير شورى" و"ناظم الجعفري" العائدين لتوهما من القاهرة بعد أن أنهيا فيها دراستهما في التصوير. وصار يتردد على مرسميهما كما صار يتردد على الصالات التي كانت تستقبل المعارض الفنية فتعرف على أعمال فنانين فرنسيين كبار في معرض نُظِّم في معهد اللاييك.

بعد حصوله على الشهادة الثانوية عام 1951، أرادت له عائلته أن يدرس الطب أو القانون في الجامعة، لكنه في قرارة نفسه كان يرغب بدراسة الفنون، متأثرا بآراء وأعمال الفنان المصري "حسين بيكار" الذي راسله في تلك الفترة. لكن رغبته هذه لاقت رفضا من قبل الأب الذي رأى في خيار ابنه جنونا. وينتهي به الأمر إلى دراسة الفلسفة... والرسوب في سنته الجامعية الأولى. هذا الرسوب المنتظر دفعه مجددا إلى مراسلة بيكار طالبا منه قبولا في كلية الفنون الجميلة. ولأسباب مادية بحتة، رفض الأب فكرة سفر ابنه إلا أن فتحي، الابن البكر، استطاع إقناع والده عندما عرض عليه اقتسام نفقات الدراسة. وهكذا، يترك برهان مدينة دمشق ليركب البحر من بيروت إلى الإسكندرية في شهر تشرين الأول- أكتوبر 1952 ومنها إلى القاهرة.

يقول يوسف عبدلكي، الفنان السوري وصديق الراحل، أن دمشق هي "مدينة طفولة كركوتلي، حيث تفتح فيها وعيه ومداركه وتفجرت مواهبه الفنية. ظلت هذه المدينة أشبه ما تكون بحلم، يظهر حنينه إلى بلده بمظهر الحنين إلى دمشق كمدينة بالتحديد". أما

برهان كركوتلي فعندما يتذكر دمشق يقول:

"كان يسري في كياني شيء من الارتياح العميق وأنا أتنزه طفلا في الأحياء والأسواق الشعبية. كان يحلو لي زيارة المسجد الأموي وتأمل زخارفه، كذلك الذهاب إلى سوق الحميدية وتأمل الناس كيف يتكلمون أو يشترون حاجياتهم... لا أدري سبب تلك الراحة النفسية التي كانت تعتريني!".

فدمشق إذا، كانت تؤلف المشهد أو العالم الذي وعى كركوتلي عليه والذي حمله "كجزء من جسده" في ترحاله بكل ما فيه من حركة وتقاليد وعمارة وطرب!

في دمشق بدأ أيضا اهتمام كركوتلي بعالم السياسة. وصار تحت تأثير بعض الأصدقاء يتردد على اجتماعات بعض الأحزاب السياسية. لكن أيا من تلك الأحزاب لم تكن تجتذبه بأفكارها كما اجتذبه حينها رؤية المناضلين الفلسطينيين الذين أتوا إلى دمشق ليبحثون عن دعم لقضيتهم. فخلال زياراته إلى فندق أبيه في ساحة الشهداء، كان كركوتلي على موعد مع رجل السياسة والأدب والفن ممن كانوا ينزلون في ذلك الفندق. وكان يحلو له مراقبتهم والاستماع إلى أحاديثهم وإن تيسر له الأمر كان يتحدث إلى البعض منهم.

سمح له هذا العالم باكتشاف الكثير من القضايا والمشاكل التي كانت تلم ببلاده وبمجتمعه، الأمر الذي دفعه للتمرد على محيطه وعلى الأفكار البالية التي كانت تسوده.

دراسة الفنون في القاهرة

عندما وصل برهان كركوتلي إلى القاهرة، كان العام الدراسي قد بدأ فيها. ويعترف كركوتلي بأنه لاقى صعوبة في مجاراة زملائه في سنته الأولى في كلية الفنون الجميلة. إلا أن التشجيع المستمر من قبل أساتذته وخصوصا بيكار وعبد العزيز درويش جعله يتفوق على الكثير منهم في نهاية المطاف. درس كركوتلي التصوير في القاهرة كما مارس النحت في المشغل الحر للكلية لمدة ثلاث سنوات. في مشروع تخرجه، خالف كركوتلي "التوجيهات الإدارية" التي كانت تحث الطلبة على اختيار مواضيع تمجد

السلطة السياسية أو ثورة عبد الناصر واختار مرضى مشفى الأمراض العصبية موضوعا له. هذه "المخالفة" حرمته على الرغم من نيله إحدى العلامات الثلاث الأولى من منحة لمتابعة الدراسة. ولعل السبب الرئيسي في حجبها عنه هو علاقاته "غير المرغوب فيها" مع الشيوعيين.

خرج كركوتلي من مصر بعدما امتلك أساسا أكاديميا متينا في الرسم وأسلوبا مبنيا على قوة التعبير وصلابة التكوين. في مصر، تعلم كركوتلي أيضا الاهتمام بفنون الفلاحين والناس البسطاء وبتأثير من "يوسف كامل"، الفنان المصري الكبير وعميد الكلية آنذاك، وعي أهمية الفن في الحياة وعلى دوره في معالجة قضايا مجتمعه وأنه مسؤوليته قبل شيء.

ربما يكون عام 1975 عاما مميزا في حياة برهان كركوتلي، وتأتي أهميته من حادثة اكتشف فيها الفن المكسيكي.

كان برهان آنذاك يفكر كثيرا في الأسلوب أو الصيغة التي سينتج فيها فنه. ولم يكن يجد في الأساليب الأوروبية؛ لا الحديثة منها ولا القديمة، ما هو قريب لذائقته ولأفكاره لاسيما وهو يتعلق أكثر فأكثر في حياة الناس البسطاء وفي فنونهم الشعبية. وفيما هو يتحدث عن حيرته هذه لأحد زملائه، يعرض عليه هذا الأخير بطاقات للوحات رسمها الفنان المكسيكي "سيكيروس" قائلا: "ربما هذا ما تبحث عنه أنت". ومن ذلك الحين وكركوتلي يبحث عن وسيلة لزيارة المكسيك أو للدراسة فيها، لكن حالته المادية لم تسمح له بهذه الزيارة إلا بعد مضي وقت طويل.

كركوتلي رسام سياسي في المغرب

على الرغم من رغبة أبيه في عودته للتدريس في دمشق إلا أنه آثر اللحاق بزميليه غياث الافرس ومصطفى يحيى إلى مدريد للدراسة في أكاديميتها. أمضى كركوتلي في إسبانيا ستة أشهر تعرف فيها على فن العمارة الأندلسية كما زار أغلب متاحف العاصمة لكنه تركها بسبب ضيق ذات اليد: "لم يكن يُسمَح بالرسم في المقاهي بسد نداء المعدة!". ويطلب كركوتلي العون من أحد أصدقاء الدراسة في مصر، وهو مغربي

من الدار البيضاء، فيكون له هذا. عمل برهان كركوتلي في الصحافة وفي دور النشر كرسام ومخرج فني كما قام بكتابة المقالات الفنية. وسمح له هذا العمل بالاتصال مع الثوار الجزائريين إبان ثورتهم ضد الفرنسيين حيث كانوا يطبعون منشوراتهم السرية في المغرب. كما أنه عمل مع المعارضة والأحزاب اليسارية المغربية. وناضل ضد الأقطاعية والملكية ووجود القواعد العسكرية الأجنبية في المغرب.

لم يعرف كركوتلي الاستقرار خلال إقامته في المغرب فالمجلات الثلاث التي عمل بها تعرضت أكثر من مرة للإغلاق، كما تعرض زملاؤه فيها إلى التوقيف أو السجن بسبب آرائهم السياسية. كل هذا، إضافة إلى طلاقه من زوجته اليمنية الأصل بعد أقل من سنة ونصف على زواجهما، دفعه إلى التفكير في ترك الدار البيضاء. وعاود كركوتلي محاولة السفر إلى المكسيك لكنه أخفق مرة أخرى ليسافر إلى ألمانيا الديمقراطية بعد حصوله على منحة للدراسة فيها على نفقة نقابة العمال المغربية.

لم يعرض كركوتلي في المغرب لأن أغلب أعماله التي نفذها هناك كانت عبارة عن رسوم أو ملصقات سياسية تعبر عن آراء المعارضة المغربية أو الثورة الجزائرية، لكن هذا العمل الفني- السياسي، وكما كان يؤكد الفنان، سمح له بحل بعض المشاكل في الاهتداء إلى أسلوب يجمع ما بين الفكرة وقوة التعبير.

بداية المغامرة الألمانية

غادر كركوتلي المغرب عام 1961 متجها إلى برلين حيث انتسب إلى أكاديميتها ليدرس فن الحفر، ويعمل في مشغل الفخار. سمحت له إقامته في ألمانيا بالاحتكاك مع الفنانين التعبيريين والتعرف على إنتاج هذه المدرسة ومدارس فنية أخرى عبر المتاحف وصالات العرض البرلينية، كما اطلع على الفن "الاشتراكي" عبر المعارض الكبيرة التي كانت تأتي من الدول الشرقية كالاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا وبولونيا.. وكان يحلو له المقارنة بين هذه الفنون وفنون الكتلة الغربية التي لم يوفر جهدا في التعرف عليها.

عمل كركوتلي في إحدى الجرائد كمصور أو رسام واستطاع للمرة الأولى أن يعرض أعماله في معرض مشترك مع "إبراهيم هزيمة" الفنان الفلسطيني و"غياث الأفرس"

الفنان السوري.
كانت أعمال الفنانين الثلاثة تستوحي التراث الفني في منطقة الشرق الاوسط.

في ألمانيا يتعرف كركوتلي على "دتيلند" سنة 1962 طالبة الآداب الألمانية الأصل التي أصبحت فيما بعد بدوية كركوتلي، الراقصة الشرقية وزوجته ومنبع إلهامه قبل كل شيء. ويسافر الزوجان إلى المغرب عام 1963 ليعمل محررا ورساما في منشورات اليساريين، لكنه عاد بعد سنة واحدة فقط بعد أن وجد أن العمل هناك أصبح صعبا وأن أغلب رفاقه قد أصبحوا خارج البلاد أو في السجن.

ويجد كركوتلي نفسه في ألمانيا الاتحادية في مدينة مانهايم.. مكسور الخاطر وبدون عمل. انتبهت عائلة زوجته إلى حالته النفسية هذه فقدمت له ألوانا ومواد الرسم على أمل أن يخرج من عزلته ومن وحشته.. تفجرت شجونه في لوحة سماها (حياة التربة) يقارب عرضها المترين وطولها 50سم، نفذها بالألوان الزيتية تصور مشهدا بانوراميا لجني المحصول في إحدى القرى. يعُدُّ برهان هذه اللوحة "الشعبية" بمثابة منعطف في أسلوبه، سيتطور مع استخدامه للحبر الصيني والريشة المعدنية كتقنية لتنفيذ أعماله. في الحقيقة، إن تصوير المشاهد الشعبية لم يكن جديدا على تجربته السابقة، ففي أيام دراسته للفنون في القاهرة، صور برهان مشاهد حياتية من واقع الشعب المصري كذلك السوري، إلا أن المحنة المادية والروحية التي مر بها جعله ينتهج أسلوبا مسليا يعتمد على الإسراف في الزخرفة المستقاة من الموتيفات الشرقية الشعبية ليُغْني بها نسيج لوحة (دون الوقوع في مطب الفولكلورية السياحية)، وينسى آلامه.

بعد ولادة وحيده "نديم" عام 1964 ازدادت أعباء كركوتلي المادية. فحاول أن يعرض أعماله عله يزيد ببيعها من دخله، لكن أسلوبه وأفكاره (كما يصفها) الشيوعية لم تكن لتقنع أصحاب صالات العرض. وانتهى به الأمر إلى العمل كعتّال في إحدى المطابع كي يحصل على قوت عائلته، تمكن من متابعة دراسته في مدرسة للفنون الجميلة.

في تلك الأثناء، ساعده أحد أصدقائه الألمان في إقامة معرض لأعماله في إحدى الصالات. نجح المعرض المادي واستقبل من قبل الجمهور والنقاد بحرارة، حيث اعتبروه احد التعبيريين السياسيين الألمان، أعطاه دفعا معنويا كان بحاجة إليه.

بعد تسع سنوات من التغرُّب، يتلقى برهان دعوة من دمشق للتدريس في كلية الفنون الجميلة. لم يُخْفِ برهان عظيم سروره آنذاك وبدأ بالتحضير للعودة فأعد برنامج العمل الطموح من تدريسه في كلية الفنون إلى تأسيس دار نشر لكتب الأطفال إلى إحياء لفنون الفلاحين في الجزيرة وجبال العلويين.

قطع برهان أوروبا بسيارته حتى وصل إلى دمشق في السادس عشر من أيار- مايو من عام 1976- لم يتسلم برهان منصبه كمدرس في كلية الفنون الجميلة إلا بعد ستة أشهر من وصوله والسبب كان روتينيا. درَّس كركوتلي سنة كاملة في قسم الحفر دون أن يتسلم رواتبه للسبب عينه مما اضطره للعمل كمهندس ديكور في هيئة التلفزيون السوري.

أقام كركوتلي في دمشق سنتين اثنتين غلب عليهما تفاقم أوضاعه المادية السيئة ومشاكله مع زملائه في الكلية التي اضطرته إلى ترك التدريس غير آسف. لم ينتج برهان في تلك الفترة أعمالا بل آثر "الصمت الفني" بعدما هزته حرب حزيران 1967.

قرر برهان التوجه (هربا) إلى لبنان، بعد أن سبقته زوجته إلى هناك. في بيروت، عمل كرسام ومصمم في إحدى المجلات وتعرف من خلال عمله هذا على "غسان كنفاني" وعلى "غادة السمان". وبسبب مغادرته سوريا دون استقالة ودون أن يمضي خدمة العلم فيها، لاحقته السلطات اللبنانية لترده إلى السلطات السورية لكنه نجح في العودة إلى ألمانيا بواسطة زوجته التي قدمت له دعوة "للم الشمل". كان ذلك في عام 1969.

وجد كركوتلي في فرانكفورت وظيفة مناسبة كرسام في دار للنشر وفي مجلة للأطفال لكنه سرعان ما ملَّ هذا العمل ليتفرغ كليا للرسم. في عام 1970، تعرف برهان على مثقفين فلسطينيين يعملون مع منظمة التحرير الفلسطينية في ألمانيا. تبنى هؤلاء أعماله وهو بدوره أصبح رسام ثورتهم حتى أنه من حينها بدأ العالم يعرفه كفنان فلسطيني. وعرفت أعماله التي تمجد الثورة وتدعو إلى مناصرتها صدى عظيما وصارت ملصقاته والبطاقات التي كان يطبعها توزَّع بشكل كبير مما جعله يؤثر العرض في التظاهرات الثقافية والسياسية ولا سيما الفلسطينية منها على العرض في

الغاليريات.

والحادثة المهمة التي جرت في تلك الفترة كانت في يوم الميلاد من عام 1970 حيث استطاع الفنان بإصراره أن يُظْهِر في مدينة فرانكفورت أن نضاله ونضال الشعب الفلسطيني هو نضال عادل. لقد أقنع برهان بلدية تلك المدينة أن تتبنى موقفا صحيحا من الاحتلال الإسرائيلي الذي امتد في تلك السنة إلى لبنان أيضا واستقبلت بذلك أعماله. في السنة التالية، يحقق كركوتلي حلمه في السفر إلى المكسيك لاكتشاف إرثها الفني الذي طالما سحره منذ أيام القاهرة. ومن الطريف أن حلمه هذا تحقق بعد حادث سير كاد يودي بحياته؛ فبالتعويض الذي حصل عليه من جراء الحادث سافر إلى مكسيكو ليمضي شهرين اثنين لا أكثر. لكن النجاح الذي لقيه هناك وشعوره بالسعادة لرؤيته أعمال "أوروسكو" و"ريفييرا" و"سيكييروس" جعله يمدد إقامته فيها إلى سنة تقريبا، بعدما دعمه مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في المكسيك دعما ماديا استطاع من خلاله زيارة فنزويلا أيضا وعرض أعماله في مراكز تجمع الجاليات العربية.

عند عودته من المكسيك، عاد كركوتلي إلى مواضيعه الأثيرة (أو كما يسميها "المواويل"). وهي الرسومات الشعبية والتي عدَّها في السابق كأعمال هامشية للترويح عن النفس. وكان من تأثير الأعمال المكسيكية التي رآها عن قرب أنه بدأ يتجرأ في تقديم اللوحة السياسية- الثورية والشعبية في آن واحد وهو ما كان يتجنبه سابقا.

فأعماله السابقة كانت تصنف بسهولة في خانة من ثلاث خانات لا أكثر، السياسية وهي الأعمال القاسية في تعبيرها، الشعبية البسيطة ذات الروح الغنائية وأخيرا اللوحة الانتقادية الاجتماعية وهي غالبا ما تكون ضعيفة التكوين لصالح التعبير الحاد والساخر المتطرف في سخريته.

كيف يصبح الفن شعبيا؟ سؤال كان يطرحه برهان كركوتلي دائما حتى وجد الحل في طباعة أعماله بالأوفست (أسود وأبيض) وتوزيعها بسعر زهيد "حتى يستطيع الفقير أن يعلق في منزله لوحة" وهذه التجربة التي نجحت في توزيع أعماله ووصولها إلى العالم العربي كما إلى الدول الاسكندنافية ربما ردت على مطلبه في أن تكون اللوحة

مثل كتاب الجيب في متناول الجميع.

بعد طلاقه من زوجته، استقر برهان في بون ليعمل حكواتيا بالإضافة إلى الرسم.

ويعول كركوتلي على حفلاته كحكواتي الكثير في تدبير أموره المالية التي لم تعرف يوما التحسن! وشهدت سنواته الأخيرة تجربة لم يكتب لها الاستمرار أو التطور بسبب مرض عصبي منعه من الكتابة أو الرسم بخط مستقيم دون أن تهتز يده أثناء الرسم. هذه التجربة هي دراسات في الجسم الأنثوي العاري حيث تختفي كليا زخارفه وكتاباته لصالح خط أسود متين يرسم الجسم دون أية تفاصيل. وربما الكثير من هؤلاء الفتيات اللواتي وقفن له كموديل هن من رقصن في مراسم دفنه، بناء على وصيته يوم 2/1/2004م في مدينة بون الألمانية.

هذه المحطات التي مررنا عليها على عجل، ربما تكون أساسا لمن أراد أن يتعمق في دراسة تجربة الفنان برهان كركوتلي لأن أعماله في غالبيتها صدى لمواقف حياتية، عاشها الفنان بصدق والتزام حقيقي: "أنا طريقي لا يباع، أنا أعمل لزمن جديد، لزمن النور العربي، ولكن هذا الزمن لن يأتي في عهد الدكتاتورية والقمع والخوف. هذا الزمن يأتي في عهد الأدمغة التي تزهر.. الصبر الصبر.. أنا فني الشعبي ليس رسما على الورق فقط، بل هو موقف، عندما أرسم بأسلوب الشعب فأنا ملتزم به وسأتخذ مواقفه السياسية. أنا لست رساما فقط بل أنا جزء من الشعب.. أريد أن أرسم بلغته وأدافع عن مصالحه.. لذلك أنا معتز في حياتي... معليش.."."**"

الهوامش

* ميشيل كرشة وصلاح الناشف من الفنانين السوريين الأوائل والذين يطلق عليهم مجازا الرواد.

** من تسجيلات خصنا بها تعود إلى عام 1999.

بطرس المعري (كاتب من سوريا)

المصدر: مجلة نزوى العدد أربعون 24.07.2009

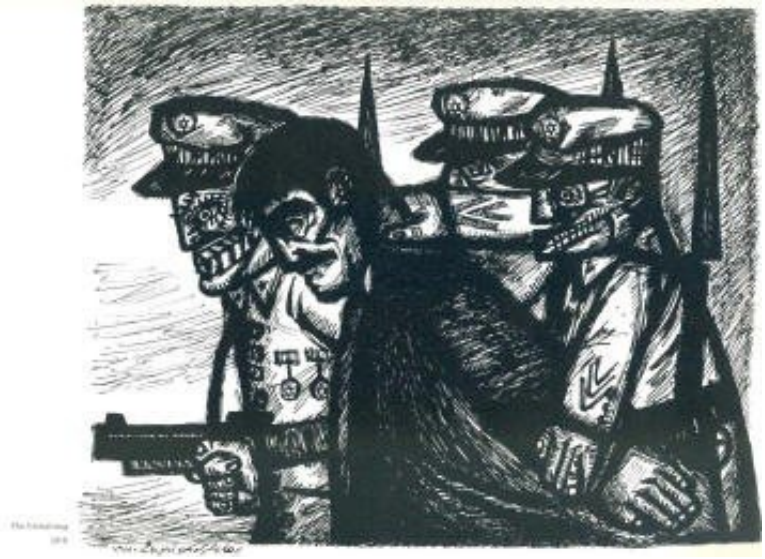

Der häßliche Amerikaner Burhan Karkutli

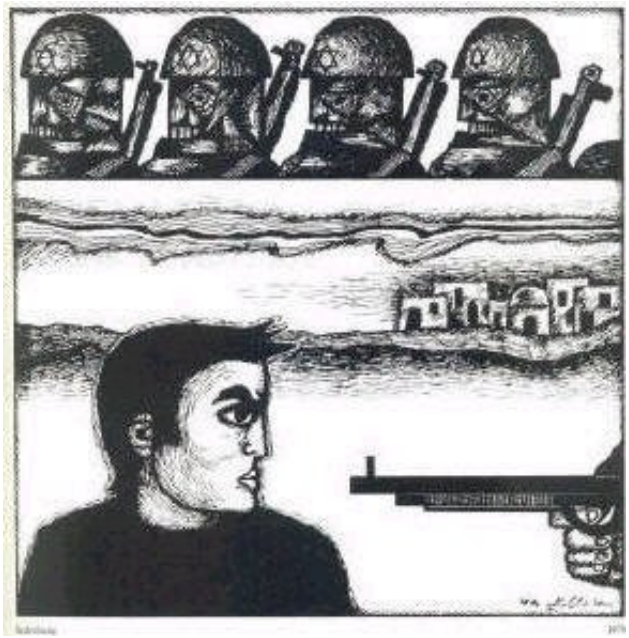

1980

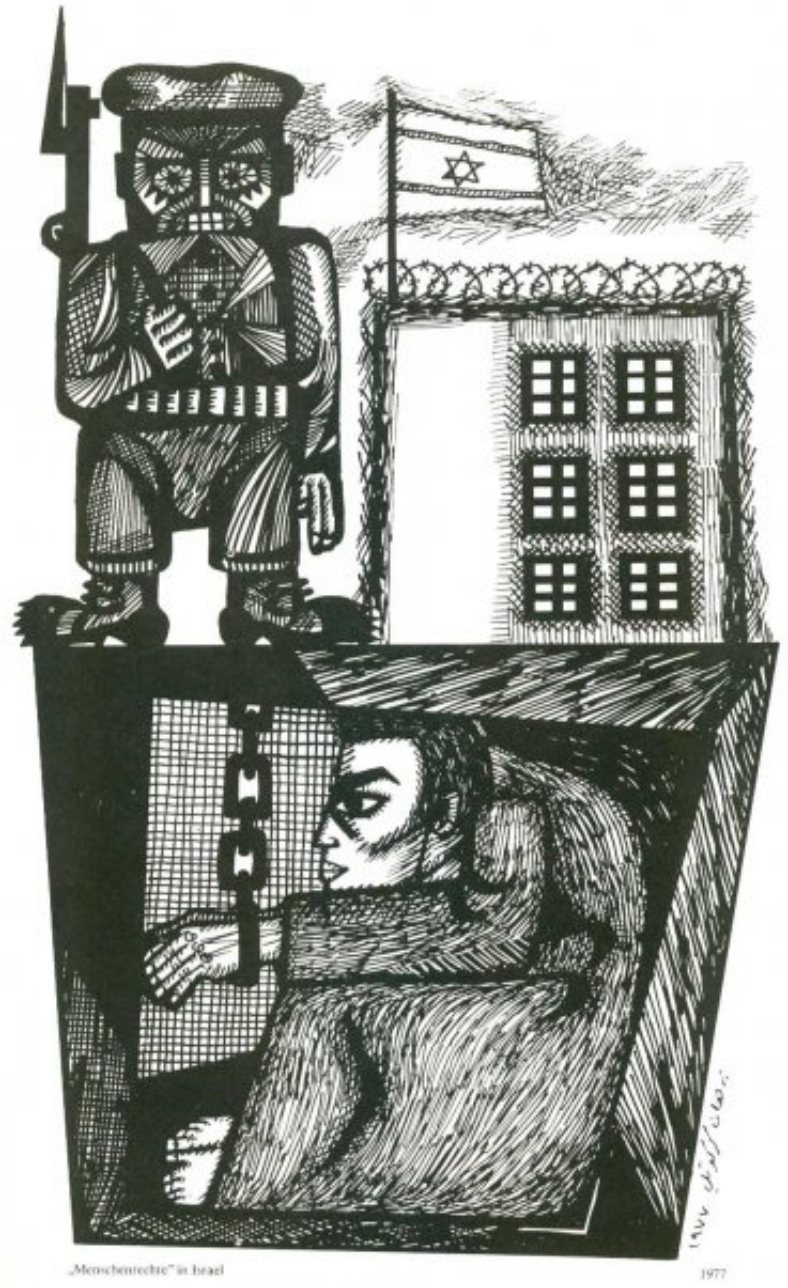

„Menschenrechte" in Israel 1977

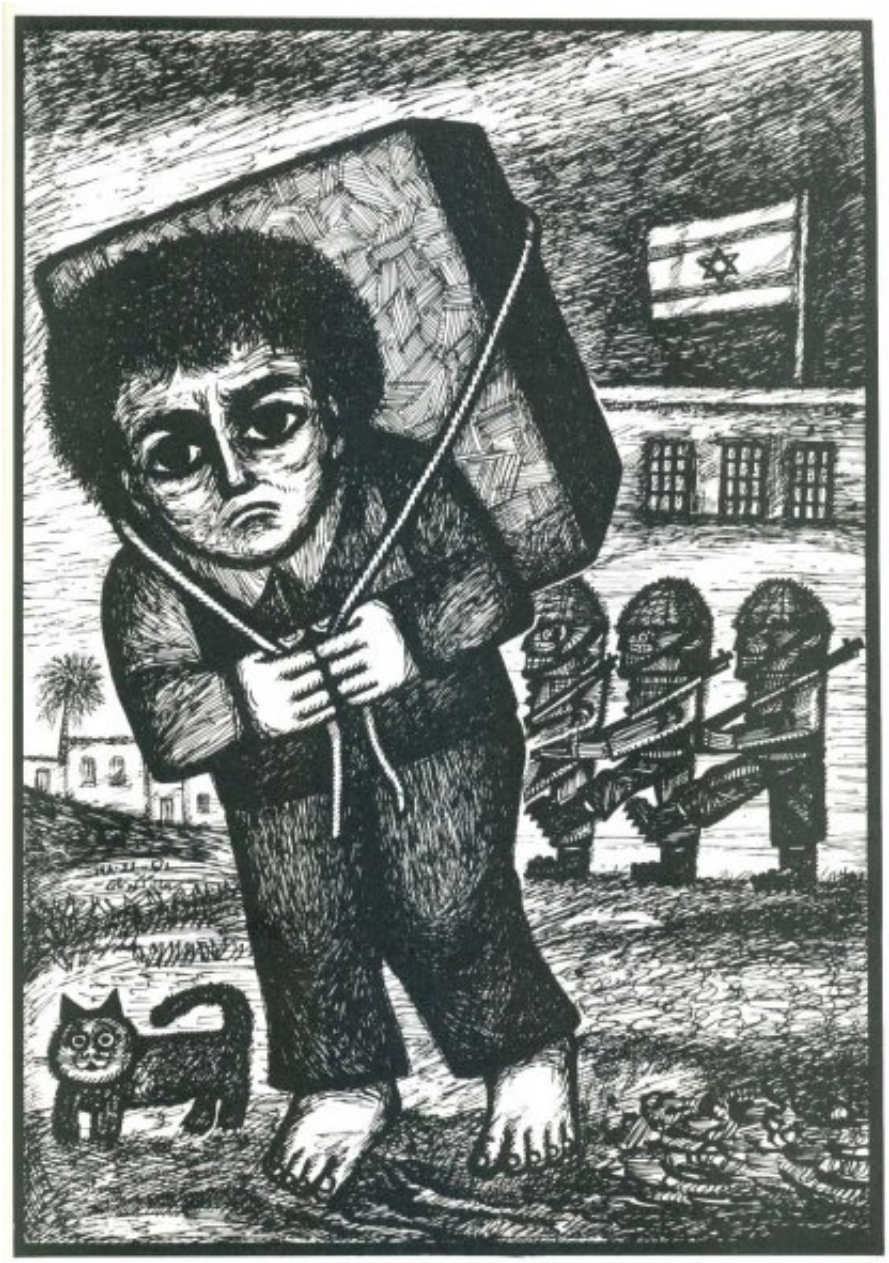

Das palästinensische Kind — eine billige Arbeitskraft 1980